فَقْهُ الْاِخْتِلَافِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَهْلِ الْبِدْعِ

عبد المنعم مصطفى حليلة
" أبو بصير الطرطوسي "

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

. مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: 102.
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء: 1.
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: 70-71.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هدي محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطرَ السماوات والأرض، عالمِ الغيبِ والشهادة، أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم.

وبعد: فإن الاختلاف وارد في مواضع دون مواضع، وبعضه استساغه الشرع دون بعض، وعالج غير المستساغ منه بطريقة محكمة راقية حاسمة .. وكالعادة فإن أهل البدع والأهواء الذين يجومون حول الحمى والشبهات، وفي كثير من الأحيان يقعون فيها .. لا يُوفرون فرصة إلا ويغتمونها لصالح أهوائهم ومآربهم .. ولا يدعون ثغرة يقدرن على أن يمرروا من خلالها شبهاتهم وأهواءهم، وأغراضهم .. إلا وسلكوها وغاصوا في أنفاقها والتواآتها .. من ذلك استغلاهم الخاطئ والمريب للمساحة المحددة من الاختلاف الوارد بين علماء الأمة والمستساغ شرعاً!

مثلهم في كتاب الله تعالى، قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ آل عمران: 7. أي ابتغاء تحريف التنزيل عن مراد منزله ليفتنوا الناس عن دينهم الحق!

لا يتورعون أن يضربوا نصوص الكتاب والسنة بعضها مع بعض، ويُعارضوا بعضها ببعض ابتغاء الفتنة والتحريف .. وابتغاء تمرير أهوائهم وضلالاتهم وبدعهم .. ليحسبهم الجاهل على شيء، وهم ليسوا على شيء!

ومن جهة أخرى فإن بعض الكتاب والدعاة المعاصرين المصابين بلوثة الديمقراطية المعاصرة .. قد تناولوا موضوع الاختلاف في الإسلام بطريقة لا تخلو من مآخذ .. وفي كثير من الأحيان ترضي الفرق الضالة الهالكة على حساب الحق .. والتوحيد .. على مبدأ ساحة الاختلاف في الإسلام تسع الجميع .. وأن الاختلاف فيما بين الفرق .. يثري الفكر والثقافة .. لا ينبغي أن يفسد الود فيما بين المسلمين .. فوسعوا ما ينبغي تضيقه، وضيقوا ما ينبغي توسيعه .. وجمّعوا ووحّدوا حيث ينبغي التفريق .. وفرّقوا حيث ينبغي التجمّع والتّوحد!

لذا وجدت نفسي ملزماً في أن أكتب حول هذا الموضوع .. وأن أجيب عن بعض المسائل ذات العلاقة بموضوع الاختلاف، ونظرة الإسلام إلى الاختلاف والمختلفين: معنى الاختلاف، ما هي أسبابه، وما هو موقف الإسلام منه؛ كيف يُعالجه ويتعامل معه، وما هو القدر المُستساغ منه شرعاً .. والقدر غير المُستساغ .. ومن ثم كيف تم استغلال فقه الاختلاف أو هذا القدر المُستساغ من الاختلاف شرعاً من قبل أهل الأهواء والبدع استغلالاً هابطاً مريباً .. وغيرها من المسائل ذات العلاقة بالموضوع .. كل ذلك سنجتهد . بإذن الله تعالى . أن نجيب عنه في هذا المبحث الهام الوجيز، الذي أسميته " فقه الاختلاف عند أهل السنّة وأهل البدع "، راجياً من الله تعالى السداد والتوفيق والقبول .. إنه تعالى سميع قريب مجيب .

وصلّى الله على مُحمّد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم .

- معنى الاختلاف: الاختلاف ضد الاتفاق؛ وفلان اختلف مع فلان أي لم يتفق معه، وكان لكلٍ منهما رأيه المخالف والمغاير لرأي الآخر فيما اختلفا فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ البقرة: 253.

ولما كان الاختلاف يحمل المختلفين على التنازع والتجادل فيما اختلفوا فيه . وهذا قد يؤدي إلى التفريق في الدين .. وإلى تفريق الصف والكلمة وضعف الشوكة . أمروا بأن يردوا منازعاتهم وما اختلفوا فيه إلى الله والرسول ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ النساء: 59. وقال تعالى: ﴿وَمَا اِخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الشورى: 10.

وفي المفردات للأصفهاني: الاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحدٍ طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله. ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة، قال تعالى: ﴿فَاِخْتَلَفَ الْأَحْزَابَ .. وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ .. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ .. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاِخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ .. فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ .. وَمَا اِخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ .. فَأَحْكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ 1- هـ.

. نظرة الإسلام إلى الاختلاف:

تنقسم نظرة الإسلام إلى الاختلاف إلى أربعة أقسام:

الأول: ما يُعرف باختلاف التنوع؛ وهو أن يكون في المسألة الواحدة قولان مختلفان أو أكثر كلها مشروعة ومباحة قد أجازها الشرع، وترك للمرء حرية أن يختار ما يشاء منها، مثال ذلك: أدعية استفتاح الصلاة؛ فقد وردت عدة أدعية وصيغ مختلفة تُستفتح بها الصلاة، ولك أن تستفتح صلاتك بالدعاء الذي تشاء من تلك الأدعية المأثورة الثابتة .. فهذا من اختلاف التنوع لا التضاد، لا حرج فيه.

ونحو ذلك صيغ الأذكار والأدعية المتعددة والمختلفة في الركوع .. فلك أن تختار واحدة من تلك الصيغ الثابتة وتدعو الله تعالى بها .. فهذا من اختلاف التنوع لا التضاد، لا مشاحة فيه ولا تنازع بين أهل العلم.

وكذلك في السجود فقد ثبتت صيغ عدة من الأذكار والأدعية .. فلك أن تختار منها ما تشاء وتدعو الله تعالى بها .. ونحو ذلك صيغ التشهد المتباينة عند القعدة وبعد كل ركعتين .. وقبل التسليم .. فلك أن تختار منها ما تشاء .. فهذا مما لا حرج فيه لثبوت فعل ذلك عن النبي ﷺ .. وكذلك كفارة من يخل بشروط الإحرام لضرورة، كما في الحديث عن كعب بن عجرة أن رسول الله

ﷺ مرَّ به زمن الحديبية فقال: " قد آذاك هوائُ رأسك "؟ قال: نعم، فقال النبي ﷺ: " احلق ثم اذبح شاةً نُسكاً، أو صم ثلاثة أيام، أو أطعم ثلاثة أصعٍ من تمرٍ على ستة مساكين " متفق عليه. وفي رواية عند أبي داود: " إن شئت فانسك نسيكة، وإن شئت فصم ثلاثة أيام، وإن شئت فأطعم ثلاثة أصعٍ من تمرٍ لستة مساكين ". فهذا من اختلاف التنوع الذي لا حرج فيه للمرء أن يختار منها ما يشاء، وما يناسبه.

ونحو ذلك الصيام في السفر من غير ضرر ولا حرج ولا مشقة فمن شاء صام فله ذلك، ومن شاء أفطر فله ذلك، ومن صام لا يجوز له أن يُعيب على من أفطر، ومن أفطر لا يجوز له أن يُعيب أو ينكر على من صام، كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ لستَ عشرةً مضت من رمضان، فمنا من صام، ومنا من أفطر، فلم يُعِب الصائمُ على المُفطر، ولا المُفطر على الصائم " مسلم.

قلت: ولكن إذا ترتب على السفر ضرر أو مشقة وحرج يكون حينئذٍ الإفطار هو الأولى، وفي حالات قد يتعين الإفطار ويصبح واجباً؛ إذ لا ضرر ولا ضرار.

فالأمثلة على اختلاف التنوع كثيرة يكفي منها ما تقدم ذكره؛ لأن الغرض هنا التمثيل والتوضيح لا الحصر والاستقصاء .. وبيان أن هذا النوع من الاختلاف يجب أن يلقي القبول؛ إذ لا يجوز أن يثير أدنى تنازع أو تفرق أو اختلاف بين المسلمين.

ويقال كذلك: أن من اختلاف التنوع ما يكون بعضه أفضل من بعض، فهو يدور بين الفاضل والمفضول لا إثم ولا وزر فيه؛ مثال ذلك: صلاة المرأة في المسجد؛ حيث يجوز لها أن تصلي في المسجد لكن صلاتها في بيتها أفضل .. ونحو ذلك حججها؛ فلو كشفت عن وجهها وكفيها جائز، فلها ذلك، لكن الأفضل . في مواضع وظروف . أن تنتقب أو تغطي وجهها وكفيها .. كذلك الحلق أو التقصير للحاج أو المعتمر؛ فالتقصير جائز لا حرج فيه لكن الأفضل منه الحلق .. ونحو ذلك تقديم بعض المناسك يوم النحر على بعض جائز لا حرج فيه .. لكن الأفضل الترتيب: رمي جمرة العقبة، ثم الذبح، ثم الحلق، ثم طواف الإفاضة .. وكذلك عندما يرد نص واحد يحتمل معنيين: أحدهما راجح والآخر مرجوح .. كما في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: " نادى فينا رسولُ الله ﷺ يوم انصرف من الأحزاب أن لا يُصليَنَّ أحدٌ الظهرَ إلا في بني قُريظة. فتخوفَ ناسٌ فوَّتَ الوقت؛ فصلوا دون بني قُريظة، وقال آخرون: لا نُصلي إلا حيثُ أمرنا رسولُ الله ﷺ، وإن فاتنا الوقت، قال: فما عَنَّفَ واحداً من الفريقين " مسلم. وذلك لأن النص يحتمل المعنيين والفهمين، وإن كان اختيار الفريق الذي صلى دون بني قريظة خشية فوت الوقت كان الأرجح والأصوب . كما يقول شيخ الإسلام وغيره من أهل

العلم . وكلاهما خير .

ونحو ذلك الحديث الذي أخرجه أبو داود بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رجلان في سفر، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيما صعيداً طيباً، ثم وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء، ولم يُعد الآخر، ثم أتيا رسولَ الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يُعد: "أصبت السنّة، وأجزأتك صلاتك"، وقال للذي توضأ وأعاد: "لك الأجر مرتين" [1]. دل حديث النبي ﷺ أن كلا الفعلين جائزان، لكن الأصوب منهما والأقرب للسنّة اختيار الذي لم يُعد صلاته. فالأمثلة على هذا النوع من الاختلاف كثيرة .. والشاهد هنا أن هذا النوع من الاختلاف كذلك يجب أن يلقي القبول؛ إذ لا يجوز أن يُثير بين المسلمين أدنى اختلاف أو تنازع .. أو يكون سبباً للبغي .. وإن كان للنصح مورد في هذا الموضوع فيكون في أعلى درجات الرفق . من دون ترفعٍ على المنصوح أو احتقارٍ له . مع ضرورة بيان أن ما يفعله المنصوح جائز وله أجر فيه وهو حق ولكن الأفضل والأكمل منه كذا .. وكذا.

قال ابن تيمية في الاقتضاء: اختلاف التنوع على وجوه: منه ما يكون كل واحدٍ من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً؛ كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة، حتى زجرهم رسول الله ﷺ عن الاختلاف، وقال: "كلاكما مُحسن". ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، والتشهدات، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، وتكبيرات الجنائز، إلى غير ذلك مما قد شُرِع جميعه، وإن كان قد يُقال: إن بعض أنواعه أفضل .. ثم نجد لكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها، ونحو ذلك، وهذا عين المحرم. ومنه ما يكون كل من القولين هو في معنى القول الآخر، لكن العبارتان مختلفتان، كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود، وصيغ الأدلة، والتعبير عن المسميات، وتقسيم الأحكام، وغير ذلك، ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقاتلين وذم الأخرى.

ومنه ما يكون المعنيان غيرين لكن لا يتنافيان؛ فهذا قول صحيح وهذا قول صحيح، وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر، وهذا كثير في المنازعات جداً.

ومنه ما يكون طريقتان مشروعتان، ورجل أو قوم سلكوا هذه الطريق، وآخرون قد سلكوا الأخرى، وكلاهما حسنٌ في الدين، ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم إحداهما أو تفضيلها بلا قصد صالح، أو بلا علم، أو بلا نية وبلا علم.

وهذا القسم . الذي سميناه اختلاف التنوع . كل واحدٍ من المختلفين مصيب فيه بلا تردد، لكن الذم واقعٌ على من بغي على الآخر فيه - هـ .

¹ صحيح سنن أبي داود: 327.

الثاني: اختلاف تضاد في الفروع: ونعني بالفروع؛ المسائل الفقهية العملية، وهذا النوع من الاختلاف واسع الانتشار بين أهل العلم، والأمثلة عليه كثيرة جداً. يدركه المرء عند أدنى اطلاع على اجتهادات الأئمة وعلماء المذاهب الأربعة. إلا أن الحق فيه واحد لا يتعدد.. وما سواه فهو باطل.

ماذا يعني ذلك.. وما هي أسباب هذا النوع من الاختلاف.. ثم كيف يُحسَم.. وما هو موقف الإسلام ممن أخطأوا في اجتهاداتهم ومذاهبهم.. هذه أسئلة لا شك أنها تُراود القارئ.. لذا لا بد من الإجابة عنها، والله المستعان.

أمّا ماذا يعني ذلك.. فإنه يعني أن على المرء أن يتحرى الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. من خلال البحث والسؤال. فيما اختلف فيه.. ليتدين به؛ إذ لا يجوز له أن يتدين بأي قول شاء من أقوال أهل العلم.. من دون أن يطمئن قلبه أن هذا القول الذي تدين به هو الحق الذي يرضاه الله تعالى ورسوله، ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة؛ لأن الخطأ وارد بحقهم.. فكلُّ يُخطئ ويصيب.. يُؤخذ منه ويُرد عدا النبي ﷺ.. والخطأ مردود لا يجوز التدين به بأي حال من الأحوال؛ أيّاً كان نوعه وكان صاحبه، لقوله ﷺ: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد" مسلم.

والقول بأن للمرء أن يتدين بأي قولٍ من أقوال أهل العلم.. سواء وافق الحق أم خالفه.. وسواء علم أنه موافق للحق أم لم يعلم.. قول باطل مؤداه إباحة أن يتحرى المرء زلات أهل العلم فيشكل منها مذهباً غريباً عجبياً.. وقد صدق من قال: من تتبّع زلات أهل العلم فتدين بها فقد تزندق!

أمّا ما هي أسباب هذا النوع من الاختلاف..؟

أقول: أسباب هذا النوع من الاختلاف بين أهل العلم عديدة منها المعتر، ومنها غير معتبر.

الأسباب المعترّة: منها، عدم بلوغ الحديث فيما اختلف فيه؛ فليس كل عالم قد أحاط علماً بمجموع ما هو ثابت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو إقرار.. ومن لم يبلغه الحديث فيما اختلف فيه قد يفتي بخلافه وهو لا يعلم.

قال ابن تيمية في كتابه القيم رفع الملام: فإن الإحاطة بحديث رسول الله ﷺ لم تكن لأحدٍ من الأمة، وقد كان النبي ﷺ يُحدث أو يفتي أو يقضي، أو يفعل الشيء، فيسمعه أو يراه من يكون حاضراً، ويبلغه أولئك. أو بعضهم. لمن يبلغونه، فينتهي علم ذلك إلى من شاء الله تعالى من العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.. ثم في مجلس آخر قد يُحدث أو يفتي أو يقضي أو يفعل شيئاً، ويشهده بعض من كان غائباً عن ذلك المجلس ويبلغونه لمن أمكنهم، فيكون عند هؤلاء من العلماء

ما ليس عند هؤلاء، وعند هؤلاء ما ليس عند هؤلاء .. وأما إحاطة واحد بجميع حديث رسول الله ﷺ فهذا لا يمكن ادعاؤه قط .. فمن اعتقد أن كل حديث صحيح قد بلغ كل واحدٍ من الأئمة أو إماماً معيناً فهو مخطئ خطأ فاحشاً قبيحاً - هـ.

ومنها: أن يكون الحديث قد بلغ العالم لكن لم يصح ولم يثبت عنده لقواعد حديثية معتبرة يعتمدها في التصحيح والتضعيف .. فيُضعف ما صحَّ عند غيره، أو يصحَّح ما هو ضعيف عند غيره.

ومنها: أن يكون الحديث قد بلغه وقد ثبت عنده، لكن مع مرور الزمن ينساه .. وهذا وارد بحق أهل العلم.

ومنها: عدم دراية العالم بدلالة الغريب والمشكل من الحديث .. والتي قد يختلف العلماء في تفسيرها وتأويلها.

ومنها: اعتقاد العالم بأن ليس في الحديث دلالة صريحة على ما اختلف فيه .. كأن يكون له من الأصول والقواعد ما يرد به تلك الدلالة .. أو اعتقاده بأن دلالة هذا الحديث ليست مرادة بدلالة أحاديث ونصوص أخرى تخالفها .. أو اعتقاده بأن الحديث متشابه معارض للمحكم الذي هو أقوى منه في الدلالة والوضوح؛ فيحمله ذلك على التأويل أو القول بالنسخ ونحو ذلك .. بخلاف غيره من أهل العلم .. فهذه هي غالب الأسباب المعتبرة شرعاً .. الممكنة الوقوع .. التي بسببها يقع الخلاف بين أهل العلم فيما اختلفوا فيه .. نسأل الله تعالى أن يهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه تعالى يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم^[2].

أما أسباب الاختلاف غير المعتبرة شرعاً فهي عدة أيضاً:

منها: التعصب لقول المذهب الذي يتمذهب به العالم كالتعصب لمذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم؛ فيحمله التعصب على نصره قول المذهب في الحق والباطل سواء .. وفيما هو موافق للنص الشرعي وفيما هو مخالف .. وما أكثر الأمثلة والنماذج الدالة على هذا النوع من التعصب لو أردنا الإحصاء .. وما أكثر مسائل الاختلاف بين المسلمين التي مردها إلى هذا التعصب الملقب المذموم!

ونحو ذلك تعصب بعض طلبة العلم . قديماً وحديثاً . لشيوخهم ولأقوال شيوخهم .. في الحق والباطل سواء .. فينتصرون لهم ولأقوالهم في الباطل كما ينتصرون لهم في الحق .. فيوسعون ساحة الاختلافات أكثر مما هي واسعة .. وأكثر مما ينبغي!

² ما تقدم ذكره من أسباب معتبرة مُستفاد من الكتاب القيم " رفع الملام " لشيخ الإسلام رحمه الله.

ومنها: اتباع الهوى والانتصار له، والاجتهاد على طريقة من يُحاول أن يجعل النص الشرعي تبعاً لهواه وقوله وليس العكس .. وما أكثر هؤلاء . في زماننا . الذين يطلبون العلم .. ويبحثون في المسائل الشرعية على هذه الطريقة المنحرفة في البحث والطلب!

ومنها: الحسد الذي يحمل صاحبه على البغي والظلم وعدم الإنصاف .. فيدم ما ينبغي مدحه، ويمدح ما ينبغي ذمه .. وما يحمله على ذلك سوى الحسد والبغي وطلب الشرف والرئاسة، وإرادة العلو في الأرض بغير حق .. وما أكثر من يفعل ذلك!

قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ ﴾ البقرة: 213. وقال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ ﴾ آل عمران: 19.

ومنها: الكبر الذي يحمل صاحبه على احتقار مخالفه ورد ما عنده من حق .. وحتى لا يُقال فلان اتبع فلاناً .. أو فلان قد غلب فلاناً في الحجة .. فيقع حينئذٍ الاختلاف المذموم .. ويقع معه التباغض والتدابير!

ومنها: عندما يرضى أهل الإفتاء أن يكونوا تبعاً للسلطان الحاكم ولسياساته .. وسنداً لظلمه وأوضاعه وأوضاع نظامه الفاسدة .. فيسندونها بالفتاوى الخاطئة .. ويتكلفون الانتصار لها .. بليّ النصوص الشرعية عن مرادها .. مرضاة للحاكم .. واستشراً لما في يديه من العطاء والمنح .. وما أكثر هؤلاء المفتين في زماننا . فينعكس ذلك على الأمة بمزيد من الاختلاف والتفرق!

ولكي تنجح مهمة هؤلاء المفتين الضالين المضلين .. في إغواء وإضلال الناس .. وترويج سياسة الأنظمة الفاسدة .. وحماية عروش الطغاة الظالمين .. ويتسع نفوذهم بين الناس .. يقابلهم الحاكم بإضفاء الأوسمة والألقاب عليهم .. ومنحهم جميع فرص الظهور عبر جميع الوسائل المتاحة التي تملكها الدولة . وما أوسعها وأكثرها . فالخدمة متبادلة؛ من الطرفين نحو الطرفين .. لكن ما أقل ما يأخذونه من الحاكم وما أكثر ما يأخذه الحاكم منهم!

وهؤلاء مثلهم في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ البقرة: 159. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة: 174. ومثلهم في السنة قوله ﷺ: " إن أخوف ما أخاف على أمتي كلُّ منافقٍ عليمٍ اللسان " [3].

³ أخرجه الطبراني، صحيح الجامع: 239.

وقوله ﷺ: " اسمعوا؛ هل سمعتم أنه سيكون بعدي أمراءٌ فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولستُ منه، وليس بوارِدٍ عليّ الحوض .. " [4].

وقوله ﷺ: " أيما رجلٍ آتاه الله علماً فكتمه؛ أجمه الله يومَ القيامةِ بلجامٍ من نارٍ " [5].

وقوله ﷺ: " إنما أخافُ على أمتي الأئمةِ المضلين " [6].

قال الشيخ سليمان آل الشيخ في كتابه تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: قوله: " إنما أخافُ على أمتي الأئمةِ المضلين "؛ أي الأمراء والعلماء والعبّاد الذين يقتدي بهم الناس، ويحكمون فيهم بغير علم فيضلون ويضلون؛ فهم ضالون عن الحق مُضلون لغيرهم، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُحْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ الأعراف: 38. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ الأحزاب: 1.67- هـ.

ومنها: أن يُطلَبَ العلم لغير الله، ولأي غرضٍ من أغراض الدنيا؛ كأن يُطلَبَ من أجل المال أو الوظيفة أو الرياسة أو الزعامة، أو ليصرف إليه وجوه الناس، أو لكي يُقال عنه عالم .. أو ليتخير به المجالس عند الحكام وذوي الجاه والشرف .. وغير ذلك من الأغراض الدنيوية .. فمن طلب العلم على هذا النحو أو لغرض من تلك الأغراض .. لا يتورع أن يضع فتاويه حيثما يشاء .. وحيثما يجد الغنيمة والمكسب .. وحيثما يُطلَب منه ويُدفع له .. وهؤلاء كثر متوافرون بيننا .. وأثرهم السيء على اختلافات الأمة في دينها ظاهر وبيّن لا يمكن خفاؤه!

وهؤلاء مثلهم في السنة قوله ﷺ: " من تعلم علماً مما يُبتغى به وجهُ الله، لا يتعلمه إلا ليصيب عَرَضاً من الدنيا، لم يجد عَرَفَ الجنة يومَ القيامة " يعني ريجها [7].

وقوله ﷺ: " من طلب العلم لئباهي به العلماء، ويُماري به السُّفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار " [8]. وفي رواية: " ولا تخيروا به . أي بالعلم . المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار " .

⁴ صحيح سنن الترمذي: 3661.

⁵ أخرجه الطبراني وغيره، صحيح الجامع: 2714.

⁶ صحيح سنن الترمذي: 1817.

⁷ صحيح سنن أبي داود: 3105.

⁸ أخرجه ابن ماجه، صحيح الترغيب: 104.

وقال ﷺ: " تعلموا القرآن وسلوا الله به الجنة، قبل أن يتعلمه قومٌ يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة: رجلٌ يُباهي به، ورجلٌ يستأكلُ به، ورجلٌ يقرأه لله " [9]. وما أكثر هؤلاء الذين يستأكلون بالقرآن في هذا الزمان!

وقال ﷺ: " كيف أنتم إذا لبستكم فتنةٌ يهرمُ فيها الكبير، ويربوا فيها الصغير، ويتخذها الناسُ سنَّةً، إذا تُرك منها شيء، قيل: تُرِكَت السنَّةُ؟! قالوا: ومتى ذاك: قال: إذا ذهبت علماءكم، وكثرت قراؤكم، وقَلَّت فقهاؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقَلَّت أمناؤكم، والثُمَّسَّت الدنيا بعمل الآخرة، وتُفَقَّهَ لغير الدين " [10].

قلت: هذا الحديث يحكي زماننا .. وهو من جملة دلائل نبوة المصطفى ﷺ .. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذه غالب الأسباب غير المعترية .. والمذمومة شرعاً وعقلاً .. والتي تؤدي إلى مزيد من اختلافات الأمة وتفرقتها في دينها .. لكن هذه الأسباب . كما ذكرنا . لا يجوز اعتبارها .. أو إعدار أصحابها .. أو اعتبار نتائجهم .. وما أقدموا عليه من قول أو عمل .. اجتهاداً معتبراً يؤجر صاحبه .. أو يجوز اعتماده أو الالتفات إليه .. لأنه بُني على باطل وفساد .. والرد عليهم وعلى نتائجهم الفاسد من قبل أهل العلم .. يكون من قبيل تحذير الأمة من أقوالهم ومواقفهم وأهوائهم وأخلاقهم .. لا غير!

أما كيف يُجسَم هذا النوع من الاختلاف؛ أي اختلاف التضاد في الفروع ..؟

أقول: يُجسَم كل ما تمَّ فيه الاختلاف والتنازع برد كل ما تمَّ فيه الاختلاف والتنازع إلى الكتاب والسنة، على ضوء فهم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء: 59.

فالآية الكريمة تضمنت أموراً عدة:

منها: وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ طاعة مطلقة من غير قيد ولا شرط .. وطاعة أولي الأمر من المسلمين . وهم العلماء والأمراء . طاعة مقيدة بالمعروف، وبما ليس فيه معصية لله تعالى .. ولو كانت طاعة مطلقة لما جاز افتراض حصول التنازع معهم وفيما بينهم.

⁹ السلسلة الصحيحة: 258.

¹⁰ قال الشيخ ناصر في كتابه قيام رمضان: رواه الدارمي 64/1، بإسنادين أحدهما صحيح والآخر حسن، والحاكم 514/4، وغيرهما.

ومنها: إمكانية حصول التنازع والاختلاف بين المسلمين .. وإلا لما جاز افتراض شيء ومن ثم بيان حله وعلاجه .. ثم هذا الشيء لا يمكن وقوعه وحصوله .. فهذا من العبث .. وكتاب الله تعالى حاشاه العبث.

ومنها: وجوب رد أي شيء من شؤون الدين والدنيا يتم فيه الاختلاف والتنازع ﴿إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ أي إلى الكتاب والسنة، فقوله تعالى: ﴿فِي شَيْءٍ﴾؛ نكرة تفيده العموم؛ أي أي شيء تتنازعون فيه .. أياً كان نوع هذا التنازع وكانت صفته .. يجب أن تردوه إلى الكتاب والسنة. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الشورى:10. قوله ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾؛ نكرة تفيده العموم، أي أي شيء تختلفون فيه من شؤون الدين والدنيا ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

ومنها: تضمن الكتاب والسنة حلاً شافياً لكل ما يمكن أن يتم فيه الاختلاف والتنازع .. وإلا لما تم الأمر برد كل ما يتم فيه التنازع والاختلاف إلى الكتاب والسنة .. فتعالى الخالق ﷻ أن يأمر عباده بأن يردوا منازعاتهم إلى الكتاب والسنة ثم لا يجد المتنازعون حلاً شافياً لمنازعاتهم في الكتاب والسنة.

وهذا المعنى قد أشار إليه النبي ﷺ بقوله: " ما تركتُ شيئاً يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به، وما تركت شيئاً يبعدكم عن الله، ويقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه "

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً، قال: قال ﷺ: " ما بقي شيء يُقربُ من الجنة ويُباعِدُ من النار إلا وقد بُيِّنَ لكم " [11].

وفي ذلك ردٌّ على أولئك الظالمين المخرفين المعتدين . المحسوبين على الدعوة والإفتاء . الذين يُشيعون بين الناس: أن نصوص الكتاب والسنة قد بينت القواعد والمسائل العامة الكلية فقط .. وتركت الأمور التفصيلية . وهو الجانب الأكبر والأوسع من شؤون الدين والدنيا . للعقل والاجتهاد .. والأخذ والرد .. ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ الكهف:5. وقال تعالى: ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ الزخرف:19.

ومنها: أن من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر رد المنازعات وما تم الاختلاف فيه إلى الكتاب والسنة .. فإذا انتفى هذا الرد وحصل الاعتراض أو الإعراض .. انتفى معه مباشرة الإيمان بالله واليوم الآخر، مهما زعم صاحبه بلسانه خلاف ذلك فواقع حاله يُكذبه .. وهو أصدق تعبيراً عن الحال من اللسان!

¹¹ أخرجه الطبراني، والبخاري، وأحمد، السلسلة الصحيحة: 1803.

هذا المعنى يظهر في آيات عدة من كتاب الله العزيز، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء: 65.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الحجرات: 2.

فإذا كان مجرد رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ سبباً ومظنة لحبوط العمل . ولا يحبط العمل إلا الكفر والشرك . فكيف بمن يرفع قوله وفقهه وحكمه ورأيه وعقله، وذوقه .. على قول وفقهه وحكم النبي ﷺ .. وعلى ما جاء به من عند ربه ﷻ .. لا شك أنه أولى بالكفر والشرك، وبأن يحبط عمله.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النور: 63.

قال ابن تيمية في الصارم: " قال الإمام أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾. وجعل يكررها، ويقول: وما الفتنة؟ الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيف فيزيغ قلبه فيهلكه.

وقيل له: إن قوماً يدعون الحديث، ويذهبون إلى رأي سفيان! فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره! قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ وتدرى ما الفتنة؟ الكفر. قال الله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ البقرة: 217. فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي ..؟! " - هـ.

وعن أبي سلمة أن أبا هريرة قال لرجل: " يا ابن أخي إذا حدثتك عن رسول الله حديثاً فلا تضرب له الأمثال " [12].

أما قولنا " على ضوء فهم الصحابة ﷺ أجمعين " .. فهو لأن الله تعالى قد رضي عنهم بنص الكتاب والسنة، وعمن اتباعهم بإحسانٍ واهتدى بهديهم؛ والله تعالى إذ يرضى عن أحدٍ فهو يرضى عنه لسلامة دينه وإيمانه واعتقاده، وليس لشيءٍ آخر، وهذه خاصية لا يمكن الجزم بها لأحدٍ بعدهم بغير نص، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ

بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿التوبة: 100﴾.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح: 18. والمؤمنون الذين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة هم أصحابه ﷺ أجمعين وكان تعدادهم يومئذ يتجاوز ثلاثمائة وألف صحابي، وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: " لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة " مسلم.

وقد توعد الله تعالى من يتبع غير سبيل الصحابة بالعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء: 115. وأولى الناس دخولاً بمسمى وصفة المؤمنين الوارد ذكرهم في الآية الكريمة هم أصحاب محمد ﷺ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يوسف: 108.

قال ابن عباس ؓ: قوله ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة، وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان، وجند الرحمن.

وقال ابن مسعود ؓ: من كان مستنأ فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم - هـ [13].

وفي السنة فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: " أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب " [14].

وقال ﷺ: " خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم " متفق عليه. فهم خير الناس . بشهادة النبي ﷺ . لسلامة دينهم وإيمانهم واعتقادهم، وعظمة أخلاقهم.

وقال ﷺ: " سترون من بعدي اختلافاً شديداً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، غصوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأموال المحدثات فإن كل بدعة ضلالة " [15]. فالعاصم

¹³ تفسير البغوي: 453/2.

¹⁴ صحيح سنن الترمذي: 1758.

¹⁵ صحيح سنن ابن ماجه: 40.

من الاختلاف هو التمسك بسنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده؛ على رأسهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ﷺ أجمعين.

ثم عندما تُفسَّر نصوص الكتاب والسنة على ضوء فهم خير الناس .. وتجتمع الأمة على ذلك .. نكون من جهة حيِّدنا أهل البدع والأهواء من أن يخوضوا بأهوائهم وأفهامهم السقيمة في تفسير نصوص الكتاب والسنة .. ومن جهة أخرى نكون قد ضيقنا ساحة الاختلافات بين المسلمين إلى أكبر قدر ممكن .. وكيف لا وقد وَحَّدنا مصدر التفسير والتأويل .. بعد أن وحدنا مصدر الحكم والتشريع.

وأما ما هو موقف الإسلام ممن أخطأوا في اجتهاداتهم ومذاهبهم ..؟

أقول: منهم من له أجر، ومنهم من عليه وزر.

فإن كان المخطئ من أهل العلم والاطلاع والاجتهاد .. وأصوله سننٌ صحيحة .. ثم كان خطؤه ناتجاً عن سبب من تلك الأسباب المعتبرة للاختلاف المذكورة آنفاً أعلاه .. فله أجر على اجتهاده وإن كان خطأ .. لكن لا يجوز اتباعه فيما أخطأ فيه .. فهو لاجتهاده مأجور .. أما من يتبعه على اجتهاده الخاطئ مع علمه بخطئه فهو آثم وعليه وزر المتابعة والتقليد على الخطأ، وفي الحديث: " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ". وقال ﷺ: " لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف " متفق عليه.

أما أن له أجر على اجتهاده الخاطئ فهو لقوله ﷺ: " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا اجتهد ثم أخطأ فله أجر " متفق عليه.

فإن قيل: كيف يكون له أجر وقد أخطأ ..؟

أقول: له أجر لأجل اجتهاده وبذل قصارى جهده في معرفة الحق .. وليس لأجل خطئه فيما اجتهد فيه .. فهو اتقى الله ما استطاع .. ومن اتقى الله ما استطاع حصل له الأجر على ما كان منه من عمل أو نتيجة، وإن ناله بعض التصغير أو القصور، لقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ التغابن: 16. وقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة: 286. وقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ الطلاق: 7.

فإن قيل: كيف نوفق بين قوله ﷺ: " من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه " [16].

وبين القول بأن من يتبع المفتي المجتهد على خطئه فعليه إثم ووزر ..؟

¹⁶ أخرجه أبو داود، والحاكم، وغيرهما، صحيح الجامع: 6068.

أقول: إثمه على من أفتاه إن كان لا يعلم خطأ الفتوى، وأن الذي أفتاه قد أخطأ فيما أفتاه فيه .. أما إن كان يعلم خطأ المفتي فيما أفتاه فيه .. ثم اتبعه بعد ذلك على خطئه .. فحينئذ لا يُعذر، ويكون عليه إثم.

ويلحقه الإثم كذلك إن لم يتحرر الأتقى والأعلم، والأنسب . مع استطاعته على فعل ذلك . ليسأله عن شؤون دينه .. لقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ التغابن:16 . فهو يستطيع أن يتحرى الأتقى والأعلم لكنه لم يفعل لغرض من أغراض النفس والدنيا!

بل من الناس من لا يتورع أن يسأل عن شؤون دينه أهل البدع والأهواء .. ومن خفت ذمهم وأماناتهم وعهودهم .. وهان عليهم دينهم .. لعلمه المسبق أنهم سيفتونونه بما يهوى ويريد .. ظناً منه أن إثم العمل بما سيفتونونه به .. سيظلمهم من دونه .. وهذا وهم منه؛ فهو شريك لهم في الإثم والوزر؛ لأنه لم يتق الله في دينه، وفيمن يأخذ عنهم دينه .. وهو نفسه لو أراد أن يُصلح ما عطب من سيارته . مثلاً . تراه يجتهد في البحث والسؤال عن أفضل مصلح وأجودهم وأمهرهم .. ليستأمنه على تصليح سيارته .. بينما لا يفعل شيئاً من ذلك عندما يريد أن يُصلح ما فسد وخسر من شؤون دينه وآخرته!!

هذا فيما يتعلق بمن له أجر على ما أخطأ فيه من أهل العلم والفقهاء والاجتهاد .. أما فيما يتعلق بالطرف الآخر الذي عليه وزر فيما قد أخطأ فيه .. هو كل من كان خطؤه ناتجاً عن سبب من تلك الأسباب غير المعبرة شرعاً الآنف الذكر أعلاه، فالخطأ لا يبرر الخطأ، ومن كانت أصوله فاسدة باطلة لا تبرر ما يترتب عليها من نتائج فاسدة باطلة.

والدليل على ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ الإسراء:36.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: " القضاة ثلاثة: اثنان في النار، وواحد في الجنة. رجلٌ عليمٌ الحقُّ فقضى به فهو في الجنة. ورجلٌ قضى للناس على جهلٍ فهو في النار، ورجلٌ جارٍ في الحكم فهو في النار " [17]. فعلم أن من يقضي أو يفتي بغير علم أو عن جهل .. أو يعلم الحق .. ثم يفتي بخلافه لغرض من أغراض النفس والدنيا .. لا يُعذر .. وليس له أجر .. بل هو في النار.

ونحو ذلك الحديث الآنف الذكر: " من أفتي بغير علمٍ كان إثمه على من أفتاه "؛ فرد الإثم على المفتي لأنه أخل بشروط الفتوى .. وتجراً على الفتوى بغير علم!

¹⁷ صحيح سنن ابن ماجه: 1873.

وفي رواية: " من أفتي بفتيا غير تثبت فيما إثمه على من أفتاه " [18]. فأضافت هذه الرواية معناً زائداً؛ وهو أن المفتي لا يأثم إن أفتى بغير علم وحسب .. بل يأثم كذلك إن أفتى مستفتيه وهو شك فيما يُفتيه غير مثبت من أدلة ما يفتيه به، وعدم التثبت أقل درجة وربما درجات من عدم العلم مطلقاً!

وكذلك الذي يسن سنة سيئة أو يدعو إلى ضلالة أو بدعة .. فهذا عليه وزره كاملاً، ووزر كل من اتبعه واستن بسنته واقتدى به .. ولا يتشفع له كونه يتزى بزى أهل العلم .. ولا تلك الألقاب أو الشهادات التي حصل عليها من بعض الجامعات المعاصرة .. ولا منادات الناس له بيا شيخ أو يا عالم .. فمثل هذا مخطئ آثم، لا يجوز أن يُحمل عليه قوله ﷺ: " إذا حكّم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا اجتهد ثم أخطأ فله أجر "، بل يُحمل عليه قوله ﷺ: " من استنَّ سنَّة سيئة فاستنَّ به، فعليه وزره كاملاً، ومن أوزار الذي استنَّ به، ولا ينقص من أوزارهم شيئاً " . وقال ﷺ: " من سنَّ سنَّة سيئة فعمل بما بعده، كان عليه وزره ومثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً " .

وقال ﷺ: " أيما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتبع فإن له مثل أوزار من اتبعه، ولا ينقص من أوزارهم شيئاً " .

وقال ﷺ: " من دعا إلى ضلالةٍ فعليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً " [19].

دلَّت الأحاديث الآنفة الذكر أن الإثم والوزر يطال التابع والمتبوع سواء .. ولا يتشفع للتابع كونه مقلداً أو أنه من عامة الناس؛ وذلك لتقصيره في البحث عنم يستأمنه على دينه .. ولتهاونه في تسليم دينه لأهل الأهواء والبدع .. كما تقدم بيان ذلك أعلاه.

فإن قيل: كيف يتعامل المسلمون مع المجتهد المخطئ الذي له أجر، ومع خطئه .. وكذلك الطرف الآخر الذي يُخطئ، وعليه وزر فيما أخطأ فيه؟

أقول: بالنسبة للعالم المجتهد الذي يُخطئ فيما اجتهد فيه، والذي له أجر على اجتهاده .. تُقال عشرته فيما أخطأ فيه .. ويُحسن به الظن .. ويُتوسَّع له في التأويل .. وحقه من الاحترام والتوقير يبقى محفوظاً عند أبناء الأمة .. لا يجوز أن يثير خطؤه مشاكل تؤثر على وحدة الكلمة وورص الصفوف .. وهذا لا يمنع من رد خطئه برفق .. وتحذير الناس مما قد أخطأ فيه .. هذا الذي

18 صحيح سنن ابن ماجه: 47.

19 انظر جميع ما تقدم من أحاديث أعلاه، صحيح سنن ابن ماجه: 41/1.

مضى عليه عمل السلف الصالح، وجميع علماء الأمة المتقدمين منهم والمتأخرين عندما يصوبون أخطاء بعضهم البعض، ويردون على بعضهم البعض.

ويمكن القول كذلك: أن العالم كلما ظهرت عليه علامات الاجتهاد والتقوى والصالح بصورة أكبر وأوضح .. وسلمت أصوله من المآخذ .. وكان بعيداً عن مواطن الشبهات .. كلما تعين على الأمة احترامه وتوقيره .. وزيد بحقه تحسين الظن .. وتوسّع له أكثر في التأويل .. هذا الموقف يتذبذب صعوداً وهبوطاً بحسب حال العالم ذاته .. وبحسب تقلباته ومواقفه .. وما يطرأ عليه من جديد وتطورات .. إذ لا يجوز أن يكون الموقف من بلعام . عالم عصره . بعد أن انسلخ من آيات الله .. كما كان قبل أن ينسلخ من آيات الله .. وهذا من مقتضى العمل بعقيدة الولاء والبراء في الإسلام .. نسأل الله تعالى الثبات، وحسن الختام.

أما فيما يتعلق بدعاة البدع والضلال .. الذين يحومون ويعومون حول الشبهات . وإن تسموا بأسماء أهل العلم . ويساندون الظلم والظالمين بفتاويهم الرخيصة .. فإنه يتعين التحذير منهم ومن أخطائهم سواء .. كما يتعين مجافاتهم بقدر انحرافهم وظلمهم وبعدهم عن الحق .. ومساندتهم للباطل .. هذا الذي مضى عليه عمل السلف الصالح في تعاملهم مع أهل البدع والأهواء .. ولو أردنا أن نسطر مواقف وتحذيرات السلف الصالح من هذا الصنف من الناس لسودنا عشرات الصفحات .. وليس هنا موضع تلك الصفحات.

وفي الأثر: " من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام " .. لما في توقيره من تزكية للمبتدع، وإضلالٍ لعوام الناس .. فيحملهم ذلك على اتباع المبتدع في بدعته وتحسين الظن به .. وتسليمه شؤون دينهم!

فإن قيل: هذا الموقف المتشدد من هذا الصنف من الناس مؤداه إلى تفريق الأمة، ومزيد من الاختلاف بين أبنائها ..؟

أقول: بل في السكوت عنهم .. وعن بدعهم وأهوائهم وضلالاتهم .. وتمكينهم على ما هم عليه من باطل .. وأن تخلي بينهم وبين الناس .. هو الذي يفرق الأمة في شيع ومذاهب شتى، وهو الذي يوسع الخرق على الراقع .. فيصعب تربيته .. والواقع خير شاهدٍ على ما نقول، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المنكر يُنكر ويُزال، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: 104.

وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران: 110.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج:41. فمن غايات التمكين في الأرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وليس مباركة أو مجاملة المنكر وأهله.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان " مسلم. وفي رواية: " فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " مسلم. ليس وراء إنكار وجهاد القلب مثقال حبة خردل من إيمان؛ لأنه ليس وراء إنكار القلب سوى الإقرار والرضى، والرضى بالكفر كفر.

الثالث: اختلاف تضاد في الأصول والعقائد، والتوحيد: هنا كذلك الحق فيما

اختلف فيه واحد لا يتعدد، وما سواه فهو الباطل والضلال، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يونس:32.

ويقال كذلك: أن اختلاف التضاد في العقائد والأصول يكون شديداً لا يمكن النظر إليه أو التعامل معه على طريقة التعامل مع اختلاف التضاد في الفروع؛ فساحة الأعداء في هذا النوع من الاختلاف تضيق جداً، والمخالف لعقيدة أهل السنة والجماعة . وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه . متهم؛ لأن إعداء المخالف في الأصول والعقائد، ومسائل التوحيد .. يعني إعداءه في هدم الدين وهدم أصوله .. وإحداث دين جديد مختلف الأصول والعقائد، والأركان .. وهذا أمر لا يمكن إقراره أو التهاون فيه مطلقاً، أو التعامل معه باسترخاء وعلى مبدأ وقول المصابين بلوثة الديمقراطية المعاصرة: الرأي والرأي الآخر !..

لذا نجد السنة فرقت في التعامل مع هذا النوع من الاختلاف .. عما سواه من الأنواع الأخرى الآتفة الذكر .. فشددت فيه ما لم تشدد في الأنواع الأخرى.

كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه في سنده عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفتق في وجهه حبُّ الرمان من الغضب، فقال: " بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكتم الأمم قبلكم " [20].

تأمل الحدة هنا التي واجه بها النبي ﷺ هذا الاختلاف والتنازع؛ حتى كأن حبَّ الرمان يفتق في وجهه الشريف من شدة الغضب .. وذلك أن المسألة المتنازع فيها لها مساس بالأصول،

²⁰ صحيح سنن ابن ماجه: 69.

والعقيدة والتوحيد .. التهاون أو السكوت عنها مؤداه إلى الهلاك وضياع الملة .. لا يمكن أن تعالج على طريقة اختلاف التضاد في الفروع!

ونحوه الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو قال: هَجَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يوماً قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ . يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الغضب . فقال: " إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاِخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ " . فليس كل اختلاف محمود .. وليس كل اختلاف يواجه برفق!

وكذلك موقفه ﷺ من فتنة كادت تقع بين الأنصار والمهاجرين، وذلك لما كَسَعَ رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، واستنصر كل منهما بقومه؛ فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ فقال: " ما بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ .. دَعْوَاهَا فِإِهَا مُنْتَنَةٌ " البخاري.

موقف فيه حزم وشدة .. لأن الاختلاف الذي حصل تضمن إحياء عصبية الجاهلية من جديد .. بعد أن منَّ الله عليهم بنعمة أخوة الإسلام .. وهذا معنى لا يمكن التهاون معه بحال .. كما لا يمكن أن يُعالج على طريقة ما بال أقوام إذ لا بد من التصريح والمواجهة.

ونحو ذلك قوله ﷺ الشديد في الفرق الضالة التي خالفت أهل السنة والجماعة في مسائل الأصول والاعتقاد، كما في الحديث عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: " افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافتقرت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة؛ فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفسُ محمدٍ بيده لتفتقرنَّ أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة؛ واحدة في الجنة، وثلثان وسبعون في النار " قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: " الجماعة " [21]. وفي رواية عند الترمذي، قال: " ما أنا عليه وأصحابي " [22]. أي الجماعة التي تكون على ما أنا عليه وأصحابي .. هي الفرقة الناجية .. أما الفرق الأخرى التي تُخالف أصول وعقائد الجماعة التي تكون على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فكلها في النار.

وقال ﷺ في المعتزلة القدرية جاحدي القدر: " إنَّ مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله؛ إن مَرَضُوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم " [23].

وفي رواية عند ابن أبي عاصم في السنَّة: " إن لكل أمة مجوساً، وإن مجوس هذه الأمة القدرية، فلا تعودوهم إذا مرضوا، ولا تصلوا على جنازتهم إذا ماتوا " .

²¹ صحيح سنن ابن ماجه: 3226.

²² صحيح سنن الترمذي: 2129.

²³ صحيح سنن ابن ماجه: 75.

وعن أبي هريرة مرفوعاً: "أخِرُ الكلامُ في القدر لشرار أمتي في آخر الزمان" [24].
وقال ﷺ فيهم وفي المرجئة: "صنفان من أمتي لا يردان علي الحوض: القدرية، والمرجئة"
[25].

وقال ﷺ: "ستة لعنتهم لعنهم الله وكلُّ نبيِّ مُجاب: المكذب بقدر الله، والزائد في كتاب الله [26]، والمتسلِّط بالجهنم؛ يُذل من أعزَّ الله ويُعز من أذلَّ الله، والمستحل حُرْمِ الله، والمستحل من عترتي ما حَرَّمَ الله، والتارك لسنتي" [27].

فتأمل هذه الأصناف الستة .. لما تضمنت مخالفاتهم الوقوع في الكبائر .. ومخالفة أهل السنة والجماعة في الأصول والاعتقاد .. كيف استحقوا هذا اللعن من الله تعالى، ومن رسول الله ﷺ، ومن كل نبي مستجاب الدعاء!

وقال ﷺ في الخوارج: "الخوارج كلاب أهل النار".

وقال ﷺ: "سيكون من أمتي قوماً يقرؤون القرآن؛ لا يُجاوز حلوقهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه، هم شرار الخلق والخليقة .. يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصومه مع صومهم .. يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية .. يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد .. لا يجاوز إيمانهم حناجرهم فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن من قتلهم أجراً يوم القيامة .. يدعون إلى كتاب الله وليسوا من الله في شيء فمن قاتلهم كان أولى بالله منهم .. يقرأون القرآن؛ ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلواتكم إلى صلواتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يرون أنه لهم وهو عليهم، لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية .. سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قوم يُحسنون القيل، ويُسيئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه، هم شرار الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم، سيماهم التحليق". وغيرها كثير من الأحاديث الصحيحة قيلت فيهم وفي غيرهم من الفرق الضالة المحسوبة

²⁴ السلسلة الصحيحة: 1124.

²⁵ أخرجه الطبري في التهذيب، وابن أبي عاصم في السنة، وغيرهما، السلسلة الصحيحة: 2748.

²⁶ يشمل ذلك كل من يدخل في القرآن معناً أو تفسيراً، أو فهماً .. النص القرآني لا يحتمله .. أي أن الوعيد الوارد في الحديث أعلاه يشمل من زاد في كتاب الله من جهة التحريف في التأويل .. كما يشمل من يزيد في كتاب الله من جهة تحريف مبانيه وكلماته وأحرفه!

²⁷ أخرجه الحاكم في المستدرک: 36/1، وقال: صحيح الإسناد ولا أعرف له علة، ووافقه الذهبي.

على أمة الإسلام .. بعض هذه الأحاديث في الصحيحين، وبعضها في السنن وغيرها، وفيما تقدم ذكره يكفي للدلالة على الشدة التي ينبغي أن يُعامل بها المخالف لأصول وعقيدة أهل السنة والجماعة .. إذ لا يجوز النظر إلى هذا النوع من الاختلاف كالاختلاف في مسائل الفروع .. كما لا يجوز التعامل مع المخالفين لعقيدة أهل السنة والجماعة في الأصول والاعتقاد كما يُعامل المخالف في مسائل الفروع .. التي يُستساغ فيها الاجتهاد .. أو على طريقة أن الاختلاف مهما كان نوعه وكانت غاياته ودوافعه ظاهرة إيجابية .. يُثري الثقافة والمعرفة .. لا يجوز أن يفسد الود فيما بين المسلمين .. كما يزعم أصحاب اللوثة الديمقراطية!

كذلك لو أردنا أن نقف على مواقف السلف الصالح التي تتسم بالشدة والغلظة على المخالفين لهم في مسائل الأصول والاعتقاد .. والتحذير منهم ومن الإصغاء إليهم وإلى أهوائهم وبدعهم .. لطلنا بنا المقام .. ولأدركنا الفارق الكبير بين تعاملهم ونظرتهم للمخالف لهم في مسائل الفروع التي تقبل الاجتهاد .. التي تتسم بالرفق وخفض الجناح للمخالف .. وبين تعاملهم ونظرتهم للمخالف لهم في مسائل الأصول والاعتقاد التي تتسم بالشدة والغلظة؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ التوبة: 123. وبقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة: 22.

فإن قيل: ما هي أسباب حصول اختلاف التضاد في الأصول والعقائد ..؟

أقول: إضافة إلى ما ذكرنا من أسباب غير معتبرة عند الحديث عن اختلاف التضاد في الفروع .. نذكر هنا سببين رئيسيين ساعدا بصورة كبيرة على وقوع اختلاف التضاد في الأصول والعقائد بين أبناء الأمة.

أولهما: انشغال بعض المسلمين . عن الكتاب والسنة . بعلم الكلام .. والفلسفة والمنطق .. وما تُرجم من كتب حول ذلك نقلت عن الأمم والملل الأخرى .. تنقل تصوراتهم واعتقاداتهم .. وطرقهم في الاستدلال على المعاني والحقائق .. والغيبات .. كل ذلك كان سبباً في تسريب وانتشار بعض تلك الاعتقادات والتصورات . بين أبناء الأمة . المغايرة والمخالفة لعقيدة الإسلام وأصوله .

هذا السبب كان ولا يزال مستمراً .. وهو في ازدياد وتوسع مستمر .. وما من عام يأتي إلا والذي بعده أسوأ منه .. فأبناء الأمة في هذا الزمان . إلا من رحم الله . لم يقتصر اطلاعهم . من علوم ومناهج الأمم والملل الأخرى . على علم الكلام والفلسفة والمنطق .. وطرق الاستدلال وحسب .. بل تعدوا ذلك بكثير .. فهم لم يدعوا باطلاً ولا كفراً .. ولا فكراً أو مذهباً شاذاً منحرفاً .. في

الشرق أو الغرب .. إلا واطلعوا عليه .. ودرسوه ودرّسوه .. بل وجربوه في واقع حياتهم ومعاشهم وحكمهم .. وقبل أن يطلعوا على الكتاب والسنة .. أو يتفقهوا بما في الكتاب والسنة، ويتعرفوا على رصيدهم المعرفي والثقافي الحضاري الضخم الذي لا يوازيه رصيد عند الشعوب والأمم الأخرى .. مثلهم في ذلك مثل الغني الذي يقصد اللثام ليلتمس منهم الفئات ليقيم به صلبه .. ظناً منه أنه فقير .. وأنه لا يملك شيئاً .. وهو في حقيقته ليس كذلك بل هو من أغنى الناس عن التسول أو عن أن يسأل الناس شيئاً .. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا الخطر .. وهذا الانحراف في مناهج وطرق التلقي والاتباع .. قد حذر النبي ﷺ منه أشد التحذير، كما في الحديث عن جابر، أن عمر بن الخطاب، أتى رسولَ الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسولَ الله! هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه النبي ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل! ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ [28]؟! فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ، فقال: أعوذُ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللت من سواء السبيل [29]، ولو كان حياً وأدرَكَ نبوتي لاتبعني" [30].

وعن عمران بن حصين قال: قال النبي ﷺ: "الحياة لا يأتي إلا بخير". قال بُشير بن كعب:

28 أي من الغضب؛ وذلك لأن الأمر له علاقة بالعقيدة والتوحيد، وبالتلقي والاتباع، ومن يؤخذ الدين .. وتؤخذ الأحكام والقيم والمبادئ والعقائد؟ فإن كانت من عند غير الله، فالجواب واضح: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾. وإن كان التلقي يقتصر على الكتاب والسنة وحسب فذاك صريح الإيمان والإسلام. وحتى يتفادى المرء الوقوع في الشرك لا بد له من أن يتوجه بكلية إلى ذاك النبع المعين الصافي الأصيل ليتلقى منه الدين والمبادئ وقيم الحق؛ وهو دين الله الإسلام الذي أوحاه الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ. وإذا كان الأمر بهذه الخطورة وهذا الجد، فكيف بنا بكثير من شباب هذا الزمان الذين ينكبون على دراسة الكتب الماركسية، واللينينية، والأفلاطونية وغيرها من المذاهب الوضعية الكافرة، قبل أن يتفقهوا في دينهم أو يعرفوا شيئاً عن إسلامهم؟!

29 هذا فيمن يتبع نبي الله موسى عليه السلام ويترك محمداً صلوات ربي وسلامه عليه، فكيف بمن يترك النبي ﷺ وتعاليمه .. ويتبع حزب البعث .. أو الحزب الشيوعي .. أو الحزب الناصري .. وأرباب ومؤسسي تلك الأحزاب الشيطانية المارقة .. أو غيرها من الأحزاب الاشتراكية والديمقراطية والعلمانية السائدة في بلاد المسلمين .. فهذا لا شك أنه على خطر كبير .. ليس له حظاً في الإسلام، مهما زعم بلسانه خلاف ذلك وقال أنه من المسلمين؟!

30 رواه الدارمي، مشكاة المصابيح: 194، وانظر صحيح الجامع الصغير: 5308.

مكتوبٌ في الحكمة أن من الحياء وقاراً، وإن من الحياء سكينه! فقال له عمران: أهدتك عن رسول الله وتحذني عن صحيفتك؟! [31].

وفي الأثر عن ابن عباس قال: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر!"

قال الشيخ سليمان آل الشيخ في التيسير: فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر؛ وهما هما، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذي ينتسب إليه، ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة؛ فما وافقه قبله، وما خالفه رده أو تأوله، والله المستعان.

ولا ريب أن هذا داخل في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ التوبة: 31. ا- هـ.

قلت: فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بأقوال أرباب الكلام والفلسفة والمنطق .. وغيرهم من حثالة الناس .. لا شك أنه أولى دخولاً في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. وأولى دخولاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: 121. وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء: 65.

قال الشافعي: "أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد".

وقال رحمه الله: "حكمتي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام" ا- هـ.

هذا حكم الشافعي . رحمه الله . فيمن ينشغل عن الكتاب والسنة بعلم الكلام .. أن يضربوا بالجريد والنعال .. لا أن يُحتفى بهم وبكلامهم وعلومهم الهابطة .. بزعم حرية الاختلاف مكفولة في الدين .. كما يروج لذلك دعاة العصر المصابون بلوثة الديمقراطية .. والإباحية الفكرية!

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: "من رفع رجلاً في رتبة النبي ﷺ كفر، وحلّ ماله ودمه، ولم تنفعه الشهاداتان ولا الصلاة" ا- هـ.

هذا فيمن يرفع رجلاً إلى رتبة النبي ﷺ .. فكيف فيمن يرفع رجلاً وأقواله درجةً .. فوق النبي ﷺ وفوق أقواله .. ويُقدم أقواله وحكمه على قول وحكم النبي ﷺ؟! ...!

³¹ صحيح الأدب المفرد: 985.

ثانياً: حرص أعداء الأمة الأصليين من اليهود والنصارى .. وغيرهم من ملل الكفر والإلحاد .. على تعميق ودعم هذا النوع من الاختلاف . اختلاف التضاد في الأصول والعقائد . بين أبناء الأمة .. وتحت مزاعم وشعارات شتى بعضها ظاهرها الخير وباطنها الشر .. وبعضها الآخر ظاهرها وباطنها الشر .. لعلمهم أن هذا النوع من الاختلاف مؤداه إلى تفريق الأمة إلى فرق وطوائف متناحرة متباغضة متدابرة .. وهذا مؤداه إلى إضعافها .. وذهاب شوكتها وقوتها .. وهيبته .. مما يتيح للعدو أن يتدخل في شؤون الأمة وقضاياها العامة والخاصة منها .. بأي طريقة شاء؛ سواء عن طريق الغزو العسكري، أم الغزو الفكري الثقافي .. وعلى مبدأ شعارهم القديم الحديث: " فرّق تَسُد "

وقد وجد في الأمة . وللأسف . من يُصغي إليهم .. ويثق بهم .. ويستعين ويستنصر بهم على مخالفته .. فجعلوا بذلك للعدو ذريعة وموطأ قدم في قلب الأمة .. وسهلوا عليه الغزو الفكري الثقافي، والعسكري . لو اقتدى الأمر . كما هو حاصل اليوم .. ونشاهد أحداث هذا الغزو بشقيه . الدائرة في منطقة الشرق الأوسط، وغيرها من بلاد المسلمين . على مدار الساعة!

ولا أجدني بحاجة للاستطراد بذكر الأدلة الدالة على دعم العدو السخي .. للفرق والأقليات الطائفية .. التي تختلف مع الأمة في أصولها وعقيدتها .. مقابل تعامل هذه الفرق والأقليات الطائفية مع أعداء الأمة على الأمة ودينها ومصالحها .. فالأمر واضح بين .. وهو معلوم للجميع .. لا يخفى إلا على كل من أعمى الله بصره وبصيرته!

الرابع: الاختلاف الناتج عن الاجتهاد في النوازل المستجدة مما لا نص فيه، وفيما لا يتعارض مع نص .. هذا النوع من الاختلاف وارد .. لاختلاف قدرات واطلاع المجتهدين .

فإن قيل ما الدليل على جواز الاجتهاد ..؟

أقول: الدليل قوله ﷺ كما في الصحيحين: " إذا حكمَ الحاكمُ فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا اجتهد ثم أخطأ فله أجر " . فالحديث أفاد بجواز الاجتهاد، وأن للمجتهد أجر على اجتهاده سواء أصاب أم أخطأ .

كذلك الحديث الذي أخرجه أبو داود بسنده عن شعبة، عن أبي عون، عن الحارث بن عمر ابن أخي المغيرة بن شعبة، عن أناس من أهل حمص من أصحاب مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: " كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ " قال: أقضي بكتاب الله، قال: " فإن لم تجد في كتاب الله؟ " قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: " فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟ " قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: "

الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسولَ الله " [32]. وقوله " ولا آلوا "؛ أي لا أقصر جهداً في تحري الحق فيما سأقضي به.

قلت: الحديث قد أفاد معانٍ عدة، منها: جواز الاجتهاد ..

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: أكثروا على عبد الله . أي ابن مسعود . ذات يوم، فقال عبد الله: " إنه قد أتى علينا زمان ولسنا نقضي، ولسنا هنالك . ثم إن الله ﷻ قدّر علينا أن بلغنا ما ترون، فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم، فليقض بما في كتاب الله، فإن جاء أمرٌ ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه ﷺ، فإن جاء أمرٌ ليس في كتاب الله، ولا قضى به نبيه ﷺ، فليقض بما قضى به الصالحون . ويعني بالصالحين هنا الصحابة رضي الله عنهم . فإن جاء أمرٌ ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيه ﷺ، ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه، ولا يقول: إني أخاف، وإني أخاف، فإن الحلال بينٌ والحرام بينٌ، وبين ذلك أمورٌ مشتهات، فدع ما يريبك إلى ما يريبك " [33].

وعن شريح أنه كتب إلى عمر رضي الله عنه يسأله، فكتب إليه . أي عمر رضي الله عنه .: أن اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ، فاقض بما قضى به الصالحون، فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولم يقض به الصالحون، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيراً لك، والسلام عليكم " [34].

وقوله " فإن شئت فتقدم "؛ أي فإن شئت فتقدم فاجتهد رأيك إن كنت أهلاً للاجتهاد فيما تريد الاجتهاد فيه .. " وإن شئت فتأخر "؛ أي فتوقف .. إن وجدت ما يريبك ويمنعك من الاجتهاد .. وفي التأخر خير لك وأسلم من أن تتجرأ على الاجتهاد فيما لم تثبت أو تتمكن منه ويطمئن إليه قلبك أنه موافق للحق.

فإن قيل: هل يُفهم مما تقدم أن باب الاجتهاد مفتوح لمن شاء .. أم للاجتهاد ضوابط .. وللمجتهد شروط؟

أقول: بل للاجتهاد ضوابط وشروط:

منها: أن يكون الاجتهاد فيما ليس فيه نص .. فإذا ورد النص من الكتاب أو السنة ..

بطل الاجتهاد .. إذ لا رأي ولا اجتهاد مع النص!

32 صححه ابن القيم الجوزية كما في كتابه أعلام الموقعين: 202/1.

33 صحيح سنن النسائي: 4987.

34 صحيح سنن النسائي: 4997.

ومنها: أن لا يؤدي الاجتهاد إلى مخالفة نص من نصوص الكتاب والسنة .. أو معارضة المقاصد العامة، والقواعد الكلية للدين .. فإن عارض شيئاً من ذلك رُد الاجتهاد وبطل.

ومنها: أن يكون الاجتهاد منسجماً مع روح الدين ومقاصده العامة، وقواعده الكلية .. لا تنافر بينهما.

ومنها: أن يكون المجتهد من ذوي العلم والتقوى والاطلاع .. يملك أدوات الاجتهاد فيما يريد الاجتهاد فيه .. ملماً بالأدلة العامة لما يريد الاجتهاد فيه .. فاقهاً لواقع ما يريد الاجتهاد فيه .. فالعالم كلما وسع اطلاعه وإلمامه بنصوص الكتاب والسنة .. وفقهه واقع المسائل التي يريد الاجتهاد فيها .. كلما استغنى عن اللجوء إلى الرأي والقياس، والاجتهاد.

ومنها: أن تكون أصول المجتهد أصولاً سنية سلفية .. أما من كانت أصوله بدعية منحرفة فإنه لص لا يُستفتى .. ولا يؤتمن على دين .. ولا يُقبل منه اجتهاد.

فإن جمع بين الأمرين: بين الأصول السنية السلفية والأصول البدعية .. يُنظر للغالب منهما .. ويُعامل على أساسه .. كما يُنصح أن يُستفتى في الجوانب أو المسائل التي لها علاقة بأصوله السنية السلفية .. دون البدعية منها.

نضرب مثلاً للتوضيح: عالم على عقيدة أهل السنة والجماعة في مسائل الأسماء والصفات .. بينما في مسائل الإيمان والوعد والوعيد تراه على عقيدة أهل الإرجاء .. فُيُستفتى حينئذٍ فيما له علاقة بمسائل الأسماء والصفات .. ويُعتزل ويُحذر منه فيما له علاقة بمسائل الإيمان والوعد والوعد.

ونحو ذلك عالم أصوله سنية في المسائل الفقهية، تراه يتحرى الدليل ما استطاع فيما يفتي ويبحث فيه .. لا يتعصب لأقوال مذهب من المذاهب على حساب الحق والدليل من الكتاب والسنة .. بينما في مسائل الأسماء والصفات .. تراه على عقيدة المتأولة من الأشاعرة وغيرهم .. فحينئذٍ يُستفتى فيما له علاقة بمسائل الفقه .. ويُعتزل ويُحذر منه فيما له علاقة بمسائل الأسماء والصفات .. وقس على ذلك بقية المسائل والجوانب الأخرى من الدين.

بهذه الضوابط والشروط الآنف الذكر يُتعامل مع الاجتهاد؛ فيقبل أو يُرد.

فإن قيل: كيف نوفق بين القول بجواز الاجتهاد .. وبين القول بأن الدين قد اكتمل، وأن

النبي ﷺ قد بين كل شيء كما تقدم؟

أقول: لا تعارض بينهما . والله الحمد . ووجه التوفيق بينهما من أوجه:

منها: أن الاجتهاد من الدين، وهو مما بينه النبي ﷺ، وأجاز له لأمته بضوابطه وشروطه الآنف

الذكر، وبالتالي فليس هو مغايراً للكتاب والسنة مخالفاً لهما .. حتى نبحت في كيفية التوفيق

بينهما.

ومنها: أن المجتهد لا يُحيط بجميع نصوص الكتاب والسنة .. وما أحاط به .. قد ينسى بعضه كما تقدم .. وبالتالي فهو عندما يلجأ للاجتهد .. لا يعني بالضرورة أنه لا يوجد نص فيما يجتهد فيه .. بل قد يعني أحياناً أن المجتهد لا يعلم النص فيما يجتهد فيه .. فيضطر لأن يلجأ إلى القياس والاجتهاد .. والنقص حينئذ يكون من المجتهد لا من نصوص الشريعة.

مما يدل على هذا المعنى موقف عمر رضي الله عنه لما تلقى خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .. ورفضه . بادئ ذي بدء . فكرة وفاة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يفني الله صلى الله عليه وسلم المنافقين .. ولما أن سمع أبا بكر رضي الله عنه يتلو قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ آل عمران: 144. ثم قال: من كان يعبد الله صلى الله عليه وسلم فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.

فقال عمر: إنها في كتاب الله وما شعرت أنها في كتاب الله!

قال ابن عباس رضي الله عنه: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس، فما يُسمع بشر إلا يتلوها. البخاري.

والشاهد مما تقدم أن الفاروق عمر رضي الله عنه .. وهو هو .. لم يفتن لهذه الآية الكريمة في أحلك وأشد الظروف حاجة إليها .. وما شعر أنها في كتاب الله .. وكذلك غيره من الصحابة .. حتى سمعوها من أبي بكر الصديق رضي الله عنه .. وإذا كان مثل هذا يرد في حق المجتهد المطلق الفاروق عمر . الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه " فلم أر عبقرياً يفري فريه " . فمن باب أولى أن يقع فيه من هم دونه قدرأ وعلماً واجتهاداً.

ونحو ذلك ما كان يوصي به النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميراً على سرية أو جيش فيقول: " وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله تعالى فلا تنزلهم؛ فإنكم لا تدرون ما يحكم الله فيهم، ولكن أنزلوهم على حكمكم " مسلم. أي أنزلوهم على اجتهادكم؛ فلأن يُرد الخطأ . في حال وقوعه . إلى اجتهادكم أهون من أن يُرد الخطأ إلى حكم الله تعالى وأنتم لا تدرون ما حكم الله تعالى فيهم .. وذلك أن الوحي كان لا يزال ينزل، والدين لم يكتمل بعد .. ويُعد الشقة بين أمراء الجند وأماكن تواجدهم .. وبين المدينة المنورة مهبط الوحي .. يُحيل بينهم وبين معرفة حكم الله تعالى مباشرة وفي كل ما يطرأ عليهم من نوازل وجديد .. لذا لزم منهم الاجتهاد إلى حين إعلامهم بحكم الله تعالى المنزل بعد رجوعهم . فإما يجيء موافقاً لاجتهادهم أو مخالفاً له . وهذا يستغرق زمناً .. وهذا لا يُقال بعد أن اكتمل الدين، وتمت النعمة، وبان حكم الله تعالى في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ المائدة: 3.

ومنها: أن الاجتهاد هو القياس .. والقياس يعني في النهاية: الرجوع إلى الكتاب والسنة وإلى دلالة نصوصهما؛ فيقيس المجتهد ما يريد الاجتهاد فيه مما لم يرد في حكمه نص على أمرٍ ورد في حكمه نص لوجود مشترك بينهما في علة الحكم .. فالأحكام الشرعية تُعرف بطريقتين: إما بالنص، وإما بحملها على نص عن طريق القياس، والقياس وظيفة ومهمة المجتهد^[35].

ومما أوصى به الفاروق عمر رضي الله عنه أبا موسى الأشعري رضي الله عنه عندما يريد أن يقضي أو يحكم في نازلة من النوازل مما لم يرد فيه نص: "الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايِس الأمور عند ذلك، واعرف الأمثال، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق".

قال ابن القيم في الأعلام 1/130: هذا أحد ما اعتمد عليه القياسيون في الشريعة، وقالوا: هذا كتاب عمر إلى أبي موسى، ولم ينكره أحدٌ من الصحابة، بل كانوا متفقين على القول بالقياس، وهو أحد أصول الشريعة، ولا يستغني عنه فقيه - هـ.

ومنها: أن من المسائل يُعرف النص فيها من خلال النظر في مجموعة من النصوص الشرعية، كل نص فيه جزئية تخص المسألة، يُمكن حملها على المسألة، لكن لا تقوى بمفردها أن تكون دليلاً مستقلاً في المسألة .. فإذا ضُمَّت إلى الأجزاء الأخرى المأخوذة من النصوص الأخرى .. والقواعد الشرعية الأخرى .. شكلت مجموع هذه الأجزاء بعضها مع بعض .. دليلاً مستقلاً على المسألة، أو النازلة التي يُراد لها الاجتهاد .. وهذا العمل الدقيق العميق .. هو من مهمة الفقيه المجتهد؛ أي أن المجتهد الحق عمله الأساس البحث عن النص .. وكيفية استخراج النص والدليل من مجموعة من النصوص والأدلة .. والقياس على النص .. فهو . في جميع مراحل اجتهاده . لا يمكن أن يخرج عن النص .. أو على النص .. بل يتحاكم إلى النص.

فإن عُلِمَ ذلك عُلِمَ أنه لا تعارض . والله الحمد . بين الاجتهاد وعمل المجتهد .. وبين كون أن الدين قد اكتمل، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أبان لأُمَّته كل ما تحتاجه من شؤون دينها وآخرتها.

³⁵ قال محمد أبو زهرة في كتابه أصول الفقه: يُعرف علماء الأصول القياس بأنه بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بإلحاقه بأمرٍ معلوم حكمه بالنص عليه في الكتاب والسنة. ويُعرفونه أيضاً: بأنه إلحاق أمرٍ غير منصوص على حكمه بأمرٍ آخر منصوص على حكمه للاشتراك بينهما في علة الحكم.

وبالقياس تُرد الأحكام التي يجتهد فيها المجتهد إلى الكتاب والسنة؛ لأن الحكم الشرعي يكون نصاً أو حملاً على نص بطريق القياس. ويقول الشافعي في مؤدى القياس: "كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم، وعليه إذا كان بعينه اتباعه، وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق بالاجتهاد؛ والاجتهاد هو القياس" - هـ.

فإن قيل: ما دام لا يوجد نص محدد في مسائل الاجتهاد .. وهذا مدعاة لاختلاف المجتهدين في النازلة الواحدة .. لاختلاف قدراتهم وسعة اطلاعهم .. وبالتالي كيف يُعرف المصيب منهم من المخطئ؟

أقول: الاجتهاد في مسائل النوازل، وفيما لا نص معين فيه .. الحق فيها واحد لا يتعدد وما سواه فهو باطل وخطأ. إذ لا موضع هنا للحدِيث عن اختلاف التنوع؛ لأن اختلاف التنوع كما تقدم يثبت بالنص لا بالاجتهاد. والمصيب من المجتهدين يُعرف بالنظر إلى مدى قرب اجتهاده من النص الشرعي .. ومن مقاصد الشريعة العامة .. وخلو اجتهاده من معارضة مقاصد الشريعة، وكلياتها العامة؛ فأيهم الأقرب للنص ولقاصد الشريعة .. والأحكام في قياسه .. ويخلو اجتهاده من معارضة مقاصد الشريعة وقواعدها العامة .. فهو الحق الذي ينبغي أن يُتبع .. واجتهاده هو الأقرب إلى الصواب .. إن لم يكن هو الصواب .. بهذا الضابط يُفاضل بين المجتهدين واجتهاداتهم .. ويُعرف المصيب منهم من المخطئ، والله تعالى أعلم.

هذه هي أقسام الاختلاف .. وهكذا ينظر الإسلام إليها .. وهكذا يتعامل معها .. فكيف ينظر أهل البدع والأهواء إلى الاختلاف .. وكيف يتعاملون معه؟

. نظرة أهل البدع والأهواء إلى الاختلاف.

أقول: أهل البدع والأهواء ليس لهم فقه يؤثر .. ولا نظر معتبر .. وإنما همهم الأكبر عبر تاريخهم الغابر والمعاصر .. كيف يمررون بدعهم وأهواءهم .. وكيف يوقعون الناس في شباكهم وحبابهم .. ليفتنوهم عن دينهم الحق .. وهذا يحملهم على الحوم والعموم حول الشبهات .. واتباع المتشابهات .. وجعلها حكماً على المحكمات .. ابتغاء الفتنة والتحريف .. من ذلك استغلالهم السيء لنظرة الإسلام للاختلاف؛ فاستدلوا باختلاف التنوع .. واختلاف التضاد في الفروع الحاصل بين بعض أهل العلم .. وما يجوز الاجتهاد فيه .. على شرعية اختلاف التضاد في الأصول والعقائد .. وأرادوا من ذلك تمرير عقائدهم الباطلة .. وأصولهم المنحرفة .. على اعتبار أنها من جملة الاختلاف المستساغ .. الذي لا ينبغي أن يُفسد الود فيما بين المسلمين.

فيستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. لتشيع الفاحشة بين المؤمنين .. ويسود المنكر من غير مُنكرٍ ولا رقيب ولا حسيب .. تحت ذريعة شرعية الاختلاف .. وضرورة احترام الاختلاف .. مهما كان نوعه .. وكان صاحبه!

يستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. ليلغوا مبدأ وعقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام.

فلماذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وحرية الاختلاف . كما يزعمون ويصورون .
مكفولة للجميع .. ومتاحة للجميع .. أياً كان نوع هذا الاختلاف .. إذ لا يجوز أن ينكر أو يحجر
فريق على آخر .. فساحة الاختلاف تسع الجميع على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وأهوائهم!؟
يستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. ليستخرجوا من
أهل الحق؛ أهل السنة والجماعة اعترافاً بشرعيتهم .. وشرعية ما هم عليه من باطل وضلال ..
ليتقوا بهذا الاعتراف على بسط نفوذهم .. ونفوذ دعوتهم .. وإضلال الناس عن دينهم .. فيقولون
لهم: لولا أننا على حق .. ودعوتنا على حق .. لما اعترف بنا وبشرعيتنا .. أهل الحق .. لأجل ذلك
ورد التحذير من توقير أهل البدع والأهواء!

يستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. لتقرير مبدأ
تعايش الأضداد والمتناقضات .. تعايش الحق مع الباطل .. وحمل كل منهما على الرضى والاعتراف
بالآخر .. فيتبع حينئذ الدين .. وتضع معاملة وحدوده، وأحكامه!

يستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. ليغيّبوا عقيدة
الولاء والبراء في الإسلام عن ساحة الشعور والاعتقاد، والواقع والعمل معاً .. إذ ما هي الفائدة من
الحديث عن الولاء والبراء .. ما دام فقه الاختلاف في الإسلام . كما يزعمون ويصورون . يسع
الجميع .. ويحتل الجميع .. حتى الزنادقة ممن يُسبون إلى هذه الأمة!

يستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. ليغيّبوا مبدأ
وعقيدة الجهاد في سبيل الله كما هي في الإسلام .. عن ساحة الشعور والاعتقاد والحياة .. إذ لماذا
الجهاد .. وساحة الاختلاف في الإسلام . كما يزعمون ويصورون . تسع جميع الفرق والطوائف
الضالة المنحرفة .. على اختلاف مشاربهم وأهوائهم!

يستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. ليشيع التحلل
والتفسخ بين الناس وفي المجتمعات .. وتشيع الإباحية بكل معانيها؛ سواء منها الإباحية الفكرية
الثقافية أم الإباحية الجنسية والأخلاقية!

يستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. ليمزقوا الأمة في
أحزاب وتجمعات .. وطوائف شتى . متناحرة متباغضة متدابرة فيما بينها . عدد المذاهب والآراء
والتصورات المختلفة التي يتبناها المختلفون!

يستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. ليمكنوا أعداء
الأمة الأصليين من غزو الأمة مادياً وثقافياً .. بذريعة ضرورة التنوع .. وضرورة إثراء الثقافات
والحضارات!

يستدلون بما يُستساغ الاختلاف فيه .. على ما لا يجوز الاختلاف فيه .. ليتمكنوا من إغراق السفينة بما فيها ومن فيها .. فيهلك الجميع .. بزعم أن الحريات مكفولة ومحترمة .. لا يجوز المساس بها أو الاقتراب منها بسوء!

هكذا ينظر أهل الأهواء والبدع والضلال إلى فقه الاختلاف .. وهكذا يتعاملون معه .. وهذا غرضهم منه .. وهم متفاوتون فيما بينهم في الإعراب عن مقاصدهم وغاياتهم؛ فمنهم الذي يغلب عليه التصريح، ومنهم الذي يغلب عليه التلميح .. فالحذر الحذر عباد الله!

. موقف الإسلام من الوحدة واجتماع الكلمة.

فقد أمر الإسلام المسلمين بالوحدة، والاجتماع، والاعتصام بجبل الله جميعاً، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف في الدين إلى شيع وأحزاب ما أنزل الله بها من سلطان .. وشدد على ذلك أيما تشدد .. لما في الوحدة واجتماع الكلمة من قوة ومنعة وسؤدد ورفعة للدين وأهله .. وما في التفرق والاختلاف من ضعف، وهوان، وتخلف.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آل عمران: 103.

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنفال: 46.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الأنعام: 159.
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ الروم: 31-32.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: 92.
وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى: 13.

وفي السنة فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: " إن الله يرضى لكم ثلاثاً: فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بجبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال " مسلم.

وقال ﷺ: " عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوة الجنة فليلزم الجماعة " [36]. والجماعة التي أمر النبي ﷺ التزام غرزها هي الجماعة التي تكون على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﷺ أجمعين.

وقال ﷺ: " الجماعة رحمة والفرقة عذاب " [37].

وقال ﷺ: " يد الله مع الجماعة " [38].

وقال ﷺ: " لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام " متفق عليه.

وقال ﷺ: " لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا " البخاري.

وقال ﷺ: " لا تختلفوا فتختلف قلوبكم " [39]. فتأمل كيف أن الاختلاف الظاهر ينعكس

سلباً ومباشرة على الباطن، ويؤدي إلى اختلاف القلوب وتنافرها!

قال ابن عباس ؓ: أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فمنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله [40]. وغيرها كثير من النصوص الشرعية التي تأمر بالوحدة والإئتلاف، وتنهى عن التفرق والاختلاف .. فاجتماع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم وشوكتهم في صفٍ واحد تجاه ما يتهددهم من أخطار داخلية وخارجية .. من أعظم مطالب ومقاصد الشريعة.

وهي كذلك مطلب عامة المسلمين .. إلا أن الكثير منهم . عن علم أو غير علم . يتغاضى عن ذكر الأسباب التي تؤدي إلى تحقيق الوحدة بين المسلمين .. والتي من دونها .. يستحيل تحقيقها، فمثلهم مثل من يُطالب بالشيء وضده معاً؛ يُطالبون بالوحدة وفي نفس الوقت يغضون الطرف عن الأسباب التي تؤدي إلى تحقيقها .. أعظم هذه الأسباب وأهمها، سببان [41]:

أولاً: أن يكون الاجتماع على الكتاب والسنة، وفق فهم الصحابة ومن تبعهم بإحسانٍ من خيار سلف الأمة، وبخاصة منهم أهل القرون الأولى المشهود لها نصاً بالفضل والخير .. هذا هو

³⁶ صحيح سنن الترمذي: 1758.

³⁷ أخرجه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة: 667.

³⁸ صحيح سنن الترمذي: 1760.

³⁹ صحيح سنن أبي داود: 618.

⁴⁰ تفسير الطبري: 39/4.

⁴¹ هناك أسباب أخرى لا يمكن تجاهلها .. ذكرناها في كتابنا " تنبيه الدعاة المعاصرين إلى الأسس والمبادئ التي

تُعين على وحدة المسلمين "، فراجع إن شئت.

المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ فالله تعالى لم يقل: "واعتصموا جميعاً" وإنما قيد هذا الأمر والفرض بجملة اعتراضية واجبة ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾، فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾. وحبل الله المتين الذي لا ينقطع الذي يجب أن تجتمع عليه الكلمة وتتوحد الصفوف هو كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .. وأيما وحدة لا تقوم وحدتها على أساس هذا المنهج .. فهي وحدة فاشلة ومرفوضة لا يمكن أن تتماسك أو يُكتب لها النجاح أو الحياة طويلاً!

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء: 115. هذا جزاء ومآل من يُشاقق ويُخالف الرسول ﷺ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ونهجهم!

وقال ﷺ: "إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً؛ كتاب الله، وسنة نبيه" [42]. فالعاصم من الضلال والهلاك والفرقة الاعتصام والتمسك بالكتاب والسنة .. مفهوم المخالفة يقتضي إن لم نعتصم بالكتاب والسنة ضللنا وهلكنا .. ولا نلومن حينئذٍ إلا أنفسنا!

وقال ﷺ: "إنها ستكون فتنة". فقالوا: كيف لنا يا رسول الله، أو كيف نصنع؟ قال: "ترجعون إلى أمركم الأول" [43]. فالعاصم من الفتنة كل فتنة . أياً كان نوعها وحجمها . يكون بالرجوع إلى الأمر الأول؛ وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﷺ أجمعين .. فأبي بيانٍ أصرح وأشفى من هذا البيان .. حقاً وصدقاً وبقيناً .. أن النبي ﷺ لم يدع شيئاً ينفعا في ديننا ودياننا وآخرتنا إلا وقد بينه لنا وأمرنا به .. وما من شيء يضرنا في ديننا ودياننا وآخرتنا .. إلا وقد بينه لنا ونهانا عنه .. صلوات ربي وسلامه عليه.

ثانياً: انتفاء اختلاف التضاد في مسائل الأصول والاعتقاد: إذ يستحيل تحقيق وحدة راشدة متماسكة متألّفة .. يُكتب لها النجاح والاستمرار .. مع وجود الأضداد والمتناقضات في الأصول والاعتقاد بين المتألفين المتحدّين .. فهذا عقلاً وشرعاً لا يُمكن حدوثه أو تحقيقه؛ إلا في حالة واحدة؛ وهي أن تكون هذه الأصول والعقائد في أنفس وأعين المتحدّين المتألفين .. فيتفقون فيما بينهم على تجاوزها وعدم الالتفات إليها أو الاكتراس بها .. وهذا خيارٌ صعب الرضى به بالنسبة للمسلمين؛ يعني الإنسلاخ من الدين كلياً والعياذ بالله.

وُجِدَ - مثلاً - من حاول أن يوحّد بين أهل السنة والجماعة .. وبين الشيعة الروافض .. بزعم مواجهة الأخطار الخارجية .. غاضباً الطرف عن المخالفات الجسيمة التي وقع فيها الشيعة الروافض

⁴² رواه الحاكم، صحيح الترغيب والترهيب: 40.

⁴³ أخرجه الطبراني، السلسلة الصحيحة: 3165.

.. والتي تُناقض أصول وعقائد الإسلام كلياً .. لكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل .. مثلهم مثل من يجرث في ماء .. أو من ينشد الماء في سراب!

كيف يُمكن أن تتحقق الوحدة مع الشيعة الروافض .. ومن أصولهم واعتقاداتهم: أن لأئمتهم مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مُرسل .. كلامهم نافذ وواجب الاتباع ككلام الله تعالى .. وأنهم معصومون عن الخطأ والزلل .. يعلمون الغيب وما كان وما سيكون .. تخضع لولايتهم وسيطرتهم جميع ذرات هذا الكون .. وأن الوحي لم ينقطع عنهم .. فهو لا زال يتنزل عليهم بعد وفاة النبي ﷺ .. فصرخوا لهم العبادة من دون الله تعالى .. وأن لهم قرآناً غير القرآن الذي بين أيدي المسلمين .. والقرآن الذي بين أيدي المسلمين قرآن محرف .. كَفَرُوا الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .. جحدوا سنة رسول الله الثابتة الصحيحة .. خَوَّنُوا أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ نِسَاءَ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى ﷺ .. في قلوبهم من الغل والحقد والغیظ على أهل الإسلام ما ليس في قلب كافرٍ .. وغير ذلك من الاعتقادات والأوصاف التي تناقض عقائد وأصول الإسلام كلياً .. والتي تعني في النهاية هدم الدين [44]!

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يُمكن أن تتحقق وحدة ومن ثمَّ يُكتب لها النجاح والاستمرار .. مع قوم هذه بعض أوصافهم .. واعتقاداتهم .. يأبون الانخلاع منها .. فهذا محال تحقيقه .. والذين يُحاولون فإنهم يُحاولون عبثاً .. لا يحترمون أوقاتهم ولا عقولهم!!

ويقال كذلك: أن الذي يتحقق مع اختلاف التضاد في الأصول والعقائد والثوابت هو التنازع .. والعداوة .. والهلاك .. والتفرق في شیع وطوائف وفرق وأحزاب متنافرة متباغضة متدابرة .. وليس الوحدة والتآلف والاجتماع .. فالتفرق ثمرة ونتائج للاختلاف في الأصول والعقائد والتوحيد .. وبالتالي فإن الذين يُطالبون بأن لا يُثار الحديث عن اختلاف التضاد في الأصول والعقائد .. وما يُعتبر من ثوابت الدين .. فيما بين الفرق والطوائف المنسوبة إلى الإسلام .. خشية على وحدة الصف والكلمة .. هم واهمون .. خادعون ومخدوعون .. ويُقال لهم: هذا النوع من الاختلاف لا يُمكن أن يُثمر وحدة أو اتحاداً .. مهما سُكِّت عنه .. أو حاولتم أن تلبثوه ثوب التحضر والرقى .. بل في إقراره والسكوت عنه تتحقق الفرقة والعداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ المائدة: 14. فلما نسوا حظاً من الدين والتوحيد .. واختلفوا فيه .. كانت النتيجة كما قال تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ

44 إن طلبت الدليل على ما تقدم ذكره عن القوم، فراجع كتابنا " الشيعة الروافض طائفة شرك وردة " .

وَالْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿﴾؛ فانقسموا وافترقوا إلى فرق عدة .. تلعن بعضها بعضاً .. وتكفر بعضها بعضاً!

وهذا مثلٌ ضُربَ للمسلمين؛ أي إن نسيتم حظاً من الدين والتوحيد .. واختلقتم فيه .. كما فعل النصارى من قبلكم .. يُعاقبكم الله تعالى بما عاقبهم؛ فيُغري بينكم العداوة والبغضاء .. فتفترقون كما افترقوا .. وتلعنون وتكفرون بعضكم بعضاً .. كما فعلوا .. فليس لهم كلَّ مرة ولنا كلَّ حلوة إن تخلقنا بأخلاقهم .. وفعلنا فعالمهم .. فتنبهوا!

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: " والله لتُقيمَنَّ صفوفكم أو ليخالفَنَّ الله بين قلوبكم ". قال النعمان بن بشير . راوي الحديث .. فرأيت الرجل يلزق منكبه بمنكب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، وكعبه بكعبه [45].

يا سبحان الله! إذا كان التقصير في عدم تسوية صفوف الصلاة .. مؤداه إلى اختلاف القلوب .. وإلى أن يُعاقب الله المقصرين باختلاف قلوب بعضهم على بعض .. فكيف بمن يقصر .. ويتهاون .. ويُخالف فيما له مساس بالأصول، والعقيدة، والتوحيد .. لا شك أنه أدعى لنزول العقاب .. واختلاف القلوب وتنافرها!

ويقال كذلك: أن أعظم مقاصد وغايات الدين .. تحقيق التوحيد؛ فهو غاية الغايات .. والمقصد الأعلى من خلق الخلق .. وإرسال الرسل .. وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذريات:56.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ البينة:5.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ التوبة:31.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل:36. وغيرها كثير من الآيات القرآنية التي تؤكد هذا المعنى.

وبالتالي فإن مطلب ومقصد التراس، والتوحد، واجتماع الكلمة .. ما هو إلا وسيلة لخدمة المطلب والمقصد الأعلى والأعظم والأسمى للدين .. ألا وهو مطلب ومقصد تحقيق التوحيد .. وبالتالي لا يجوز أن يُضحى بالغاية من أجل الوسيلة .. ولا بالأعلى من أجل الأدنى، ولو حصل تعارض بين التوحد والتوحيد .. وكان لا بد من اختيار أحدهما .. فُدم خيار التوحيد ولا بد .. وليس للمسلم خيار غير هذا الخيار، إلا في حال آثر أن يختار الكفر على الإيمان!

⁴⁵ صحيح سنن أبي داود: 616.

فمن صفات النبي ﷺ أنه فرَّق بين الحقِّ وأهله من جهة .. وبين الباطل وأهله من جهة أخرى ولو كانوا من أولي القرى أو العشيرة أو القبيلة الواحدة؛ لأن ذلك من مقتضيات تحقيق التوحيد؛ توحيد الخالق ﷻ.

كما في الأثر عن المقداد بن الأسود، قال: " والله لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حالٍ بعث عليها نبيٌّ من الأنبياء في فترة وجاهلية؛ ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرَّق به بين الحق والباطل، وفرَّق بين الوالد وولده .. " [46].

ومن أسمائه ﷺ الماحي الذي يمحو الله به الكفر والباطل، كما في الحديث: " أنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر " متفق عليه.

وعن جابر بن عبد الله ؓ قال: " جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان .. "، وفيه: " فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمدٌ ﷺ فرَّق بين الناس " البخاري. فأخى بين المؤمنين، وعادى الكافرين والمجرمين.

وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة: 22. فكان النبي ﷺ ومن معه من أصحابه الكرام ؓ أجمعين خير ترجمان لهذه الآية الكريمة في شعورهم واعتقادهم، وواقع حياتهم ومعاشهم سواء.

فإن قيل: ماذا يكون القول في تلك المقولة الرائجة الشائعة: " نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه "؟

أقول: هذه المقولة ليست حديثاً ولا أثراً لصحابي أو تابعي .. ولا لعالم من علماء الأمة الأوائل .. وإنما هي عبارة أُثرت عن داعية معاصر؛ نحسبه من الصالحين ولا نزكي على الله أحداً .. رحمه الله تعالى.

والعبارة متشابهة .. حمالة أوجه ومعانٍ .. قد استُغلت أسوأ استغلال .. من قبل دعاة التوحد على حساب التوحيد، ووجه التشابه فيها أنها أجملت ما ينبغي فيه التفصيل، وبيان ذلك، أن قوله: " ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه " .. فإن كان المراد بالاختلاف اختلاف التنوع ..

⁴⁶ أخرجه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة: 2823.

فاختلاف التنوع . كما تقدم . كله حق وصواب .. لا مجال فيه للتلاوم والرد والأخذ .. ومن ثم الإعذار!

وإن كان المراد بالاختلاف اختلاف التضاد في الفروع .. وبشروطه التي يُستساغ فيها . كما تقدم . فالعذر قائم بين المختلفين .. ولكن هذا لا يمنع من التناصح وبيان الحق فيما اختلف فيه؛ لأن الحق في مثل هذا النوع من الاختلاف الذي ينبغي اتباعه واحد لا يتعدد!

وإن كان المراد بالاختلاف اختلاف التضاد في الأصول والعقائد والتوحيد .. فالمقولة باطلة ومردودة؛ إذ لا يجوز أن نعذر المخالفين للإسلام في أصوله وعقائده وثوابته .. بل تشتد المؤاخذة عليهم .. كما تقدم الحديث عن ذلك.

فإن قيل: كيف نفهم ونفسر الحديث القائل: " اختلاف أمتي رحمة "؟
أقول: هذا الحديث موضوع لا أصل له . كما نص على ذلك علماء الحديث . ومعناه مخالف للأحاديث الصحيحة التي تبين شر ومضار الاختلاف في الدين، كما في قوله ﷺ: " لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا " البخاري.

وقوله ﷺ: " الجماعة رحمة والفرقة عذاب " . وغيرها من النصوص الشرعية التي تحذر من شر الاختلاف والتفرق في شيع ومذاهب شتى.

بهذا أجيب عن هذا السؤال الوارد أعلاه .. وبالجواب عنه تنتهي . بفضل الله تعالى ومنتته وتوفيقه . الإجابة عن مسائل هذا البحث .. راجياً من الله تعالى القبول، وأن يجعل من عملي هذا مفتاح خير مغلاقٍ سرٍّ للمسلمين .. إنه تعالى سميع قريب مجيب .

وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد المنعم مصطفى حليلة

" أبو بصير الطرطوسي "

1427/11/30 هـ / 2006/12/20 م.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
2	المقدمة
4	معنى الاختلاف
4	اختلاف التنوع
7	اختلاف التضاد في الفروع
7	أسباب اختلاف التضاد في الفروع
7	أسباب معتبرة
8	أسباب غير معتبرة
11	كيف يُحسم اختلاف التضاد
15	موقف الإسلام ممن أخطأوا في اجتهاداتهم ومذاهبهم
17	كيف يتعامل المسلمون مع المجتهد المخطئ
19	اختلاف التضاد في الأصول والعقائد والتوحيد
22	أسباب حصول اختلاف التضاد في الأصول والعقائد
25	الاختلاف الناتج عن الاجتهاد في النوازل المستجدة
26	ضوابط وشروط الاجتهاد
27	التوفيق بين القول بجواز الاجتهاد وبين القول بأن الدين قد اكتمل
30	نظرة أهل البدع والأهواء إلى الاختلاف
32	موقف الإسلام من الوحدة واجتماع الكلمة
33	أعظم الأسباب التي تُعين على التوحيد
	مناقشة عبارة: " نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا
37	فيه "
38	مناقشة عبارة: " اختلاف أمتي رحمة "
	الفهرس